سيرته وأثره في الحضارة

رقم الإيداع بدار الكتب
٣٥٧٣ لسنة ١٩٧١

محمد رسول الله

سيرته وأثره في الحضارة

تأليف

جلال مظهر

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

مقدمة

عكفت على دراسة حضارة العرب والإسلام أكثر من عشر سنين ، كتبت فى خلالها ثلاثة كتب فى أثر الحضارة العربية الإسلامية فى الحضارة الأوربية . والحق أننى كلما ازددت معرفة بتاريخ حضارة العرب والإسلام وبتاريخ العلم ، ازداد يقينى بالأثر الجوهرى الذى أحدثته هذه الحضارة فى إبان ازدهارها فى القرون الوسطى فى حضارة أوربا ، ومن ثمة فى الحضارة الحديثة .

ولما كان محمد عليه الصلاة والسلام هو مؤسس هذه الحضارة ، أصبح لزاماً علىّ أن أربط سيرته بها ، وأصبح ضرورياً ، بل لقد أصبح من واجبى ، أن أعود إلى النبع الذى انبثقت منه هذه الحضارة .

ثم إننا لا نستطيع فى واقع الأمر أن نعى حقيقة الدور الذى أدته حضارة الإسلام للتقدم الإنسانى عامة من غير أن نبحث فى أحوال العالم الذى ورث الحضارة القديمة ، والذى استولى عليه المسلمون فى ذلك الوقت وأثروا فيه ، وهو عالم الرومان والمسيحية فى المقام الأول . يستتبع ذلك أن نعقد مقارنة بين المفاهيم التى أرستها المسيحية فى هذا العالم — والتى دعت إلى ترك الدنيا وانتظار ملكوت السماء ، أو إلى احتقار العلم والعلماء ، أو إلى غير ذلك من المفاهيم التى أدت فى نهاية الأمر إلى انهيار الحضارة القديمة والقضاء على كل مظاهر العلم — وبين المفاهيم التى أرستها حضارة الإسلام فى هذا العالم ذاته بعد أن استولى عليه المسلمون ، وكيف قلبته رأساً على عقب ، وكيف نتج عن المفاهيم التى شاعت فى دولة الإسلام ، مثل القول بأن الكتابة أشرف المهن بعد الخلافة ، والتى تبناها خلفاء الإسلام وحكامه وأمراؤه ، نهضة حضارية علمية عظيمة الشأن ، كانت سبباً مباشراً فى إنقاذ العلوم القديمة من الضياع ،

فضلا عن ابتكار علماء المسلمين لعلوم جديدة تكمن فى أساس الحضارة الحديثة بشهادة جِلَّة من العلماء الأوربيين المحدثين أنفسهم ؛

هذه النهضة الكبيرة التى أحدثتها دولة الإسلام فى التاريخ الدينى ، والاجتماعى ، والعلمى ، والحضارى عموماً فى القرون الوسطى ، إنما يرجع الفضل فيها إلى رجل عربى أمى كانت أمه تأكل القديد ، عاش فى صحراء العرب ، وخرج يوماً ما من مسقط رأسه طريداً يقاتله قومه أشد القتال ، فكافح كفاحاً بطولياً ، ثم انتصر عليهم ، وأسس فى النهاية ديناً يدين به الآن مئات الملايين من البشر فى جميع أنحاء العالم ، ودولة انبثقت عنها أكبر إمبراطورية عرفتها القرون الوسطى ، بل ربما لا نكون مغالين إذا قلنا إنها كانت أهم إمبراطورية فى تاريخ الحضارة الإنسانية العلمى على الأخص .

من هنا بدأت أكتب سيرة هذا النبى الأمى ، بطل العرب ، ونور الدنيا ، ومعجزة الإنسانية ، وانحصرت الخطة التى انتهجتها فى كتابة هذا التاريخ فيما يلى :

حافظت بقدر الإمكان على سياق النصوص القديمة التى وصلتنا عن أئمة كتاب السيرة ورواة الأحاديث . ذلك أن هذه النصوص لا تزال فى الحقيقة من حيث سلاستها وسهولتها وكأنها بنت اليوم ، فضلا عن جمالها اللغوى وبيانها . ولم أدخل عليها إلا بعض تعديلات قليلة إذا اقتضى الأمر تغيير كلمة مهجورة بكلمة حديثة . ولم أحاول أن أدخل على السيرة من الخطابيات والحماسيات والنظريات التى تحتمل القيل والقال شيئاً ، بل إنى تعمدت أن أترك السيرة كما وصلتنا عن القدماء بكل جلالها وروعتها تعبر تعبيراً صادقاً عن مختلف الأحوال والملابسات والعقائد والأفكار التى كانت سائدة فى ذلك العصر ، وبما تنطوى عليه من عبقرية الشعب وعبقرية القائد فى إطارها البدوى الساذج . ثم وضعت هذا كله فى إطار من أفكارى وتعليقاتى . ولم آخذ عن أحد من المحدثين شيئاً يستوجب الإشارة إليه ،

وإن كنت قد استترت بكتبهم ولا شك . ولذلك لم أشر فى هوامش الصفحات إلى المراجع ، وإنما أشرت إليها جُملة فى نهاية الكتاب .

ثم إنى مِلْتُ مع ميزان الفكر الحديث ، وبينت بجلاء كيف أن الشعب الذى ظهر فيه محمد عليه السلام كان شعباً يتمتع بكثير من المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عُظْمى ، وإن عابته بعض المثالب التى نهاه عنها الإسلام ، فأصبح به خير أمة أخرجت للناس . ولا غرو فإن محمداً ذاته كان دائم الفخر بعروبته وببيته الهاشمى .

ولم أحفل بالرد على مهاترات أعداء الإسلام الذين أرادوا الانتقاص من النبى بالشوشرة الفارغة حول بعض تصرفاته ، أو بالطعن فى بعض مفاهيم الإسلام ، واكتفيت بإظهار فكرة كبرى ، هى أن الإسلام ونبى الإسلام قد أحدثا ثورة هائلة فى القرون الوسطى فى تاريخ الفكر الإنسانى عموماً ، والفكر العلمى بخاصة ، وأنقذا العالم من عصور الظلام ، ووضعاه على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . ماذا جنت البشرية من ظهور محمد والإسلام ؟ هل تقدم العالم تحت نظام الإسلام أم تأخر ؟ هل كان الإسلام نظاماً تقدمياً بالنسبة للأنظمة الموجودة فى عصره أم لا ؟

وهنا أعتقد أنه ينبغى للكثيرين من الذين يجنحون فى مناقشاتهم إلى استعمال بعض العبارات الحديثة مثل « الدين أفيون الشعوب » أن يدركوا تمام الإدراك أن الدين الإسلامى لحسن الحظ لم يكن ولا ينبغى أن يكون فى أى وقت من الأوقات ، ولا تحت أى ظرف من الظروف أفيوناً للشعوب . لأن الدين الذى يحض على الاستعلاء فى هذه الدنيا ، ويمجد الحرية ، ويشيد بالعلم والعلماء — الدين الذى تأمر روحه العام خليفة المسلمين بأن يقف فى الناس فيقول لهم كما قال أبو بكر : « إن أحسنت فأعينونى وإن أسأت فقوّمونى . . . إن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم » أو كما قال عمر : « من رأى منكم فىّ اعوجاجاً فليقوّمه » وهذه هى روح الإسلام الحقيقية ، لا يمكن أن يكون أفيوناً

للشعوب . وتاريخ الإسلام فى عصر ازدهاره وقوته ، أى فى عصر الرجولة الإسلامية ، مليء بمواقف لعدد كبير من الخلفاء ، والحكام ، والقضاة ، تعبر أحسن تعبير عن هذا المتجه ، وعن هذه الروح . ويكفى الإسلام أو أى نظام اجتماعى آخر فخراً أن يكون فى عصره نظاماً تقدمياً لا انتكاسياً . ومن هنا ينبغى لكل المفكرين وللتقدميين على الأخص أن ينظروا للإسلام باعتباره نظاماً تقدمياً من النظم التقدمية التى أحدثت فعلا وحقيقة تقدماً رائعاً فى تاريخ الإنسان الحضارى ، فى عصر كانت فيه الحضارة فى أمس الحاجة إلى دفعة نورانية تزيح عنها الظلمات التى خيمت عليها .

ثم إنى شرحت فى الفصل الأخير جميع هذه الأفكار ، وتعرضت للحقائق التاريخية التى حكمت عالم الحضارة فى القرون الوسطى ، وبينت كيف أن حضارة الإسلام كانت فى حقيقة الأمر ، وبما ليس فيه مجال للقيل والقال ، واعتماداً على أوثق المصادر العلمية والتاريخية الحديثة ، الأساس الجوهرى الذى ترتكز عليه الحضارة الحديثة . ونحن إذ نقرر هذا التقرير لا نلقى القول على عواهنه ، وإنما يكفى أن نذكر هنا الآن أقوال عدد من كبار علماء الغرب ، تفصح أيما إفصاح عن هذه الحقيقة التى شغلتنى أكثر من عشر سنين ، حاولت فيها بكل طاقتى وبما وصل إليه علمى أن أبثها ، وأثبتها ، وأعممها فى أفكار بنى جلدتى ، وأهدى بها الجيل الجديد من أبناء العرب الكرام إلى حقيقة تاريخية هامة جداً ينبغى لهم أن يعوها تماماً ، وأن يعملوا على نشرها .

يقول الأستاذ همبولد : ينبغى لنا أن ننظر إلى العرب باعتبارهم المؤسسين الحقيقيين للعلوم الطبيعية آخذين هذه التسمية من مفهومنا للعلوم الطبيعية فى عصرنا هذا .

ويقول الأستاذ ليبرى : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوربا الأدبية عدة قرون .

ويقول الأستاذ كارا دى فو : إن مكتشفات العرب فى الرياضيات تكمن فى أساس الحضارة الحديثة .

ويقول الأستاذ نيكلسون : إن مؤلفات العرب التى اتصفت بالدقة وسعة الأفق قد استمد منها العلم الحديث — بكل ما تحمل هذه العبارة من معان — مقوماته بصورة أكثر فاعلية مما نفترض .

أبادر بالاستشهاد بهؤلاء الأساتذة ، وهم من كبار الباحثين الأوربيين ، حتى أكون أقرب إلى عقول أبناء وطنى العربى الذين بلبلت أفكارهم دعايات المستعمرين والمبشرين والشعوبيين ، وحتى لا يظن البعض أنى أجرى وراء أوهام ، أو أنى أنساق فى دوّامة من العاطفة الوطنية المتأججة . كلا ثم كلا ! فهذه حقيقة تاريخية كبرى ، إن لم يقتنع بها اليوم إلا فئة ممتازة من المثقفين الذين ألمّوا بتفاصيل هذا التاريخ ، واستطاعوا أن يخرجوا من الكماشة التى ضربتها الدعاية الغربية ضد العرب والإسلام ، فإنى على يقين من أن الأيام كفيلة بتحقيق ما أرمى إليه .

القاهرة فى ٢ من أغسطس سنة ١٩٧٠ — جلال مظهر

الفصل الأول

الجاهليـــة

أو

فترة ما قبل الإسلام

يراد بالجاهلية زمن الفترة التى مرت قبل الإسلام والتبشير به . وفى الحديث : إنك امرؤ فيك جاهلية ، أى أنك لا زلت متأثراً بالحالة التى كان عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع دينه ، فضلا عن تمسكك ببقايا بعض العادات التى كانت متفشية بين العرب فى الجاهلية ، والتى نقضها الإسلام . ولقد ورد ذكر الجاهلية فى القرآن أربع مرات فى الآيات : « يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية[1] » و « أفحُكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون[2]» و « إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية[3] » و « وقرن فى بيوتكن ولا تبرَّجن تبرُّج الجاهلية الأولى[4]» . وأمّا المقصود بالجاهلية الأولى فأمر اختلف فيه المفسرون كثيراً ، وأعتقد أن المقصود بالجاهلية الأولى إنما هو الزمن الموغل فى الجهل بالأنبياء والرسل ، أى الزمن السابق على الأنبياء والرسل المعروفين . ونحن على أية حال لا نستطيع تحديد فترة الجاهلية على وجه الدقة ، إلا بالقول بأنها الفترة التى مرت على العرب وهم يجهلون الإسلام ، أى ما قبل الإسلام على إطلاق القول .

يعبر لفظ الجاهلية فى عقول الناس عن حالة من الفوضى والاضطراب

---

(١) آل عمران ١٥٤ . (٢) المائدة ٥٠ .

(٣) الفتح ٢٦ . (٤) الأحزاب ٣٣

والهمجية والانحطاط عاشتها بلاد العرب قبل الإسلام . ولقد درج المؤرخون المسلمون الورعون الأتقياء ، الذين يريدون إظهار الإسلام فى ثوب من الإعجاز ، أو الشعوبيون الذين رموا إلى الانتقاص من شأن العرب ، أو المستعمرون المحدثون ، على تثبيت هذا المفهوم وترسيخه ، كل فئة تخدم أغراضها . ولكن الحقيقة التاريخية تدلنا قطعاً على غير ذلك ، مما يجعلنا نقرر مع عدد من الباحثين أن الجاهلية تعنى أول ما تعنى الجهل بالدين الإسلامى وشرائعه ، فضلا عن بعض العادات السيئة التى نقضها الإسلام لا غير . ذلك أننا لا نستطيع أن ندعى أن الإسلام هدم المجتمع العربى الجاهلى هدماً تاماً وكاملا وشاملا من أساسه ، وأقام بين ليلة وضحاها مجتمعاً آخر ليكون « خير أمة أخرجت للناس » . هذا لا يمكن أن يحدث فى عالم الاجتماع . فإن حضارة الأمم لا تولد فجأة وبلا مقدمات ، وإنما هى فى واقع الأمر نتيجة لتطور طويل جداً ، ولمفاهيم أخلاقية تترسب فى نفسية الجماعة جيلا من بعد جيل ، وتؤهلها للقيام بدور حضارى معين .

والحق أننا لا نقع فى واقع الأمر لا فى القرآن ولا فى الحديث على شىء نستشم منه عيباً فى شأن العرب باعتبارهم أمّة ، بل على الضد نقع فى أحاديث كثيرة على ما يفيد أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان يفخر دائماً بالعرب جملة وبالبيت العربى الذى ولد فيه بخاصة . فقد جاء فى صحيح مسلم أنه قال : « إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من بنى إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفانى من بنى هاشم » . وجاء فى البخارى أنه قال : « بُعِثْتُ من خير قرون بنى آدم قرناً فقرناً ، حتى بعثت من القرن الذى كنت فيه » . وقال الإمام أحمد إن النبى صعد المنبر فقال : « إن الله خلق الخلق فجعلنى فى خير خلقه ، وجعلهم فرقتين فجعلنى فى خير فرقة ، وخلق القبائل فجعلنى فى

خير قبيلة ، وجعلهم بيوتاً فجعلنى فى خيرهم بيتاً ، فأنا خيركم بيتاً وخيركم نفساً » .

غير أنه من أعجب الأشياء حقاً أن الكتاب المسلمين القدماء ، وكثيراً جداً من المحدثين تناولوا بعض العادات السيئة التى كان يمارسها عرب الجاهلية ، وأخذوا ينسجون من حولها هيكلا ضخماً من السباب والشتائم فى هؤلاء العرب ، ظناً منهم أنه طالما حرّم دينهم مثل هذه العادات ، فإن الهجوم عليها وعلى الشعب الذى مارسها ضرورة يحتمها عليهم الورع الدينى . ولكن ما شأن الصفات الحميدة ؟

لقد تغاضى هؤلاء الكتاب تماماً عن الصفات الحميدة والخلقيات العليا التى اتصف بها الشعب الذى ظهر فيه محمد فكان بالإسلام « خير أمة أخرجت للناس » ، وتمسكوا بالقشور دون اللب والجوهر مستخدمين بعض المفاهيم الدينية التى أساءوا فهمها . لقد نسى أمثال هؤلاء الكتاب أو تناسوا ما اتصف به العرب الذين ظهر فيهم محمد من صلابة أخلاقية ومن مكارم نفسية هى فى واقع الأمر الأساس الذى يقوم عليه تقدم الشعوب ، وتتأسس به الإمبراطوريات والدول القوية والمجتمعات الناهضة الفتية .

ومن هنا أتت تلك البلبلة العجيبة التى أحدثها هؤلاء الكتاب فى مفهوم الناس عبر القرون لخلقيات الشعب العربى قبل الإسلام وإبان ظهور الإسلام . ولقد استمرت هذه المفاهيم الخاطئة بصورة أو بأخرى حتى أيامنا هذه . ولكنى أعتقد أن ميزان الفكر قد تحول فى السنين الأخيرة تحولا واضحاً نحو رفض الأقوال القديمة والنظريات الشعوبية والاستعمارية التى تسيء إلى عرب الجاهلية ، وبدأت الصورة الحقيقية لهؤلاء العرب الكرام الذين كان محمد من خير بيوتهم ، تتحيز بشكل واضح فى كتابات كثير من الكتاب المحدثين .

أريد أن أقول بمنتهى الوضوح إن هؤلاء العرب الذين ظهر فيهم الرسول

إنما كانوا يملكون كل الأسس الأخلاقية الجوهرية اللازمة لبناء دولة قوية ، ولتأسيس مجتمع يستطيع أن يحافظ على سلامة هذه الدولة . ولا مِرية أن كل من ينظر نظرة ثاقبة فى أحوال هؤلاء العرب ، لا يسعه إلاّ التسليم بهذا القول : فإن الدولة القويمة ، كدولة الإسلام ، لا تقوم إلاّ على أكتاف أفراد أقوياء أخلاقياً وروحياً ، على أكتاف أفراد منتصرين بداءة . لا على أكتاف أفراد منحلين متخاذلين منهزمين نفسياً . ولقد انتصرت الدولة التى أسسها محمد بهمة رجالات مثل أبى بكر ، وعمر ، وعلى بن أبى طالب ، وسعد بن أبى وقاص ، وخالد بن الوليد ، وغيرهم من أبناء الجاهلية أتراب محمد وأصحابه .

لقد كانت القيم الأخلاقية التى اتصف بها هذا الشعب الأساس الأول الذى بُنِيَت عليه دولة الإسلام القوية . أمّا القيم الأخلاقية والنفسية التى اتصف بها هذا الشعب وهيأته للقيام بالدور الذى قام به فى التاريخ فكثيرة جداً ، نذكر منها شيئاً على سبيل المثال لا على سبيل الحصر : قيمة العزة وشرف النفس ، قيمة الصدق ، قيمة الشجاعة ، قيمة الكرم ، قيمة الدفاع عن الحق ، قيمة التفاخر بصالح الأعمال ، قيمة التضحية فى سبيل الأهل والوطن والشرف ، قيمة حب الدين ، قيمة نصرة المظلومين ، قيمة حب البطولة ، قيمة حب العدل ، إلى آخر ما اتصف به هذا الشعب من قيم أخلاقية يفيض بها الشعر الجاهلى ويعبر عنها أحسن تعبير .

مما لا مِرية فيه أن العصر الجاهلى عصر من عصور القوة الأخلاقية ، ومصداق كلامنا هذا الانتصارات التى حققها هذا الشعب فى مختلف مجالات النشاط الإنسانى عند ما أتيحت له الفرصة الكاملة للعمل الحضارى البناء بعد أن تناوله الإسلام بالتهذيب والصقل . والحق أن هؤلاء العرب بعد أن خلصهم الإسلام من الصفات السيئة التى كانت تقف عقبة فى سبيلهم ، قد حققوا مجداً لم يطاولهم فيه أحد فى القرون الوسطى . ولقد يخيل إلينا أنهم كانوا يطيرون على أجنحة من الريح ، خفافاً لا يصدهم صاد ولا يعوقهم عائق عن بناء

دولة قوية صامدة ، تستطيع بصلابة أخلاق أفرادها أن تواجه التحديات التى تقابلها .

لقد كان العرب الذين هيأهم محمد عليه السلام للدور الذى قاموا به أعزة كراماً مقدامين لا يقبلون الضيم مهما كلفهم ذلك حتى ولو كلفهم حياتهم ؛ لم يكونوا أمّة جريحة . ذلك أن الأمّة الجريحة فى كرامتها ، المغلوبة على أمرها ، لا تستطيع أن تنتصر ولا يمكنها بحال من الأحوال أن تكون دولة كالدولة الإسلامية فى القرون الوسطى . إن الأمة الجريحة فى كرامتها تكون دائماً وفى جميع الأحوال والملابسات أكثر استسلاماً ، وألين جانباً ، وأميل إلى الخضوع ، وأرضى بالذل ، يسوقها إلى ذلك انحلال أفرادها ورضاهم بهذا الذُّل واستكانتهم حفاظاً على حيواتهم وأموالهم وما فى أيديهم مهما صغر ومهما قلت قيمته . فهل تغيّر الإسلام أو تبدل ؟ كلا ثم كلا ! وإنما تغير الرجال الذين يقيمون فى دولة الإسلام .

لقد ظلت الدولة الإسلامية قوية صامدة طالما كان رجالها قادرين على المضى قدماً فى العمل بالأخلاقيات العربية التى باركها الإسلام وقوّاها ، وطالما استمسكوا بها مهما كلفهم ذلك من تضحيات قد تصل بعض الأحيان إلى الموت . ثم انحدر المسلمون وضعف الإسلام عندما بدأت تتراجع مثل هذه الخلقيات ، وعندما بدأ الناس يتخاذلون ويستكينون ويستسلمون للعدوان عليهم وعلى كرامتهم وعلى رجولتهم ، وعلى كل القيم التى اتصف بها آباؤهم ، ونسوها هم ، والتى من شأنها أن تجعل منهم أناساً لهم قيمة فى الحياة . انحل المسلمون وانحلت الدولة الإسلامية ، وأصبح المسلمون فى الحضيض عندما تخلفت هذه المقومات ، ولم تعد جزءاً من مكنونات النفوس ، وعلى الأخص مقوم العِزّة وشرف النفس ؛ فحرص الناس على ما فى أيديهم وما يأتيه إليهم الطغاة مهما قلت قيمته ، وتكالبوا على الدنيا بغض النظر عما يستباح من حرماتهم وما يُنتهَك من كرامتهم .

عندئذ انحل المجتمع الإسلامى وغرق فى هوة من الذل والاستخذاء والاستكانة من شأنها أن تكبت فيه كل معانى الخير والحرية والجمال . أمّا عرب الجاهلية الذين نعرف ، والذين أسسوا المجتمع الذى ظهر فيه محمد وأصحابه ، فقد اتصفوا بكل الصفات وملكوا كل المقومات الأخلاقية الدافعة نحو حضارة عظمى ، وإن انحصرت حياتهم فى الحقيقة فى إطار البادية وما توحى به البادية من مفاهيم تناقض مفاهيم الحضارة الثابتة الراسخة . وتدلنا الحقيقة التى يشير إليها تاريخ العرب الاجتماعى والسياسى والتجارى والثقافى دلالة واضحة على أن هؤلاء العرب كانوا منظمين تنظيماً اجتماعياً عظيماً منذ أبعد الأزمان ، وإن تأثر هذا التنظيم فى واقع الأمر بضرورات الحياة فى بادية شاسعة مترامية الأطراف ، مختلفة المناخ ، متباينة الأوضاع .

نرفض إذن القول بأن العرب الذين ظهر فيهم الإسلام كانوا قوماً من الهمج رفضاً باتاً ، ذلك أن القول بأن الشعب الذى ظهر فيه الإسلام والذى حمل رسالته التمدينية إلى العالم بكل أمانة وحكمة ، كان قبل ذلك شعباً همجياً ، وأنه ترقى فى عشرين سنة ، وأخذ على عاتقه ترقية شعوب أكثر منه حضارة ، أمر ضد الطبع وضد المنطق وضد سياق التاريخ . وأما الحقيقة التى يحدثنا عنها التاريخ فتشير بكل وضوح إلى أن العرب الذين خرجوا من جزيرتهم واستولوا على العراق والشام ومصر وشمالى أفريقيا والأندلس ، قد نهضوا فعلا بهذه البلاد ، فازدهرت شعوبها ونشطت فيها ضروب من الفكر والفلسفة والأعمال العامة لم تعهدها من قبل ، أو قل إنها كانت قد نسيت مثيلاتها منذ قرون وقرون .

إذن أريد أن أقول بمنتهى الوضوح أن العرب الذين ظهر فيهم محمد كانوا فعلا قد ربّبوا قيماً أخلاقية واجتماعية أهلتهم لأن يقودوا العالم فى العصور الوسطى فى مختلف فروع النشاط الإنسانى ، وأن يصبحوا رعاة الأدب والعلم والفن : والحق إن الحضارة لا تزدهر إلا فى جو من الرقى

الاجتماعى والأخلاقى . ومما لا شك فيه أن هؤلاء العرب كانوا أرقى أخلاقياً من جميع الشعوب التى فتحوا بلادها واحتكوا بها فى القرون الوسطى. لذلك أصبح ممكناً أن تنهض هذه الشعوب من جديد وأن تزدهر فيها ضروب الحياة الحضارية التى كانت قد انحلّت تحت وطأة العسف الرومانى والأفكار المسيحية التى سادت فى إبان عصور المسيحية الأولى ، مما سيأتى بيانه فيما بعد ،

لقد يخيل إلى البعض أن الإسلام هدم المجتمع الجاهلى هدماً تاماً . كلا ثم كلا ! الدين الإسلامى دين ودولة . أمّا من حيث هو دين فإن الدعوة الإسلامية قائمة فى جوهرها على أساس أن الدين الإسلامى ليس ديناً جديداً ، وإنما هو دين إبراهيم وإسماعيل وإسحق وموسى وعيسى : « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحـــد منهم ونحن له مسلمون[1] » . هو دين الحق الذى أفسده أهله وأدخلوا عليه من الضلالات والبدع ما ليس منه ، فأرسل الله رسوله ليبلغ الناس كافة دينه الحق ويعيد الدين الصحيح إلى صفائه الأول . ولقد ذكّر القرآن الكريم العرب مراراً وتكراراً فى آيات كثيرة بأنهم إنما يؤمنون فى قرارة نفوسهم بكل الجوهريات الإلهية التى يحدثهم عنها .

أمّا من حيث هو دولة لها شرائع وأحكام فإنه كان فى واقع الأمر بمثابة تقنين . لقد أقر الإسلام كثيراً جداً من العادات والتقاليد والأحكام التى كان معمولا بها فى الجاهلية وأيدها ، فأصبحت جزءاً لا يتجزأ من شريعته ، ورفض عادات وتقاليد أخرى وأنكرها فنسيت وبادت .

مثال ذلك أن كثيرين من مفكرى المجتمع الجاهلى وقواده كانوا قد بدأوا فعلا يرفضون كثيراً من العادات القبيحة ، ويؤيدون عادات أخرى ،

---

(١) البقرة ١٣٦ .

أو يضعون أحكاماً جاء الإسلام فأقرها . فأول من حرّم الخمر فى الجاهلية الوليد بن المغيرة ، وقيل قيس بن عاصم ، وحرمها أيضاً عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قسم للذكر مثل حظ الأنثيين عامر ابن جشم الجهمى ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من حرم القمار فى الجاهلية الأقرع بن حابس ، وقرر ذلك الإسلام . وكانوا يرجمون فى الزنا فى الجاهلية وقرر الإسلام ذلك فى المحصن . وأول من حكم أن الولد للفراش فى الجاهلية أكثم بن صيفى حكيم العرب ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من قطع يد السارق المغيرة ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من سن الدية مائة من الإبل عبد المطلب جد محمد ، وقرر ذلك الإسلام . وأول من أظهر التوحيد بمكة قبل محمد قُس بن ساعدة . ثم إنهم حرموا الجمع بين الأختين ، وكانوا يحجون البيت الحرام بمكة ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويرمون الجمار ويقفون مواقف الحج كلها . وكانوا يغسلون موتاهم ، ويغتسلون من الجنابة ، ويداومون على المضمضة والاستنشاق ، وفرق الرأس والسواك ، والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الإبط وحلق العانة والختان . وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء . وكانوا فى الجاهلية أيضاً يعتقدون فى الله وفى أنه سميع مجيب ، وأنه يحيى ويميت ، وأنه ينزل الغيث ، وأنه خالق السماوات والأرض ، وإن أشركوا به . أى أنهم كانوا موحدين ، ولكن كان توحيدهم مشوباً بالشرك .

وعندما استطاع محمد أن يوجه العرب نحو هدف واحد ، وأن يفرض قانوناً موحداً وعادات وتقاليد ومبادئ يؤمن بها جميع العرب ، ويعملون بمقتضاها ، وهى فى واقع الأمر لم تكن بعيدة عن مفاهيمهم ونفسياتهم وخلقياتهم وما جبلوا عليـــه ، تهيأ العرب عندئذ وصاروا لأن يقودوا العالم فى ذلك العصر . والحقيقة أنهم كانوا — مهما قلبت أوجه الرأى والنظر — أرقى كثيراً جـــداً من جميع الشعوب التي فتحوا بلادها . بما فى ذلك الفرس

والرومان والمصريون وغيرهم . لا أقول أرقى منهم من ناحية المظهر والملبس والمعاش ، وإنما أقول بكل تأكيد إنهم كانوا أرقى من جميع هذه الشعوب أخلاقيا . وهنا يكمن سر انتصاراتهم فى القرون الوسطى ، وسر حضارتهم التى أنقذت العالم من عصور الظلام ، ووضعت الإنسان على عتبة العصر الحديث بكل ما تحمل هذه العبارة من معان . وسوف يستبين القارئ الفاضل كل ما أرمى إليه من سطور هذا الكتاب .

والحق أن الترقى فى جزيرة العرب كان قديماً جداً . فإن نظمهم الاجتماعية فى الزواج والطلاق وفى مختلف المعاملات كانت نظماً راقية لا تقل عن نظم الأمم المتحضرة المجاورة لهم ، إن لم تفقها فى بعض الأحيان . ومما لا مراء فيه أنهم عرفوا قوانين وعادات وشرائع وعقائد وتنظيمات حضارية هامة جداً ، سواء الحضر منهم أو سكان الخيام . وتدلنا الحقائق التى نستطيع استجماعها من مختلف أحوالهم قبل الإسلام وفى صدر الإسلام ، دلالة أكيدة على درجة كبيرة جداً من الرقى الأخلاقى ، والتنظيم الاجتماعى المتقن .

لا شك فى أن وضع المرأة فى أى مجتمع وحالتها العامة فيه فى أى عصر من العصور ، معيار هام جداً نستطيع به أن نصدر حكماً صحيحاً على قوة هذا المجتمع الأخلاقية ، وعلى مقدار تماسكه وتوازنه واستعداده بكل طاقته للعمل المثمر المفيد ، ذلك أن المرأة عماد المجتمع ومربيته وهاديته ، وهى عموماً مفتاحه ، إن صلحت صلح بصلاحها ، وإن فسدت فسد أيما فساد بفسادها .

كيف كانت إذن حال المرأة فى هذا المجتمع ؟ هل كانت حقيقة تلك السلعة الرخيصة التى يلهو بها الرجال ؟ هل كانت هذا المخلوق الكريه الممقوت الذى يشده الرجال تخلصاً من عاره ؟

كلا ثم كلا ! ذلك أن وأد البنات لم يكن شائعاً بين كل العرب ، وإنما كانت قلة منهم هى التى ترتكب هذه العادة الشنيعة ، سواء من عابدى الأوثان أو المتنصرين على السواء . ثم إن الوأد لم يكن مقصوراً على الفقراء ، بل إن بعض أثريائهم وساداتهم وأدوا بناتهم . والحقيقة أن العرب الذين وأدوا

بناتهم لم يكونوا بدعة فى الدنيا القديمة . فإن كان بعض العرب قد وأدوا بناتهم ، فإن اليونان كانوا يقتلون الضعاف من الذكور والإناث على السواء . وإن كان بعض العرب قد أباحوا لنسائهم الاستبضاع فقد أباحه اليونان والرومان . وإن كان العرب قد عددوا الزوجات فقد فعل ذلك اليونان أيضاً .

غير أن المرأة العربية الجاهلية كانت على العموم أرقى منزلة وأرفع مكاناً فى مجتمعها من المرأة اليونانية أو الرومانية مثلا . لم يعتبر العرب المرأة وعاء للنسل فحسب كما فعل اليونان . ولم يعتبروها مخلوقاً أحط من الرجل ، أو أنها باب للجحيم ، أو أنها خطر ونحس ، أو أنها المضلل الأول والعائق الأساسى فى طريق الخلاص ، أو أنها أداة للشيطان ، أو أنها مخلوق شرير دنىء يباح ضربها والاعتداء عليها كما اعتبرتها المسيحية . بل إنها كانت نداً للرجل ، وأكبر دليل على ذلك ما جاء فى أمثال العرب قولهم : إن النساء شقائق الأقوام ، والشقائق جمع شقيقة ، وهى كل ما يشق نصفين ، أى أن النساء كن مثل الرجال . وفضلا عن ذلك امتازت المرأة العربية الجاهلية عن نساء العالم القديم بأنها كانت ترث نصيباً مما يترك والداها ، فى حين أن المرأة اليهودية أو البابلية أو الأشورية أو اليونانية لم يكن لها حق فى الميراث . ومما لا شك فيه أن المرأة العربية قد تبوأت مكاناً رفيعاً جداً فى المجتمع العربى الجاهلى لم تبلغ مثله النساء المعاصرات لها أو غيرهن من نساء الأمم القـــديمة ، فيما عدا النساء المصريات فقط فى مصر القديمة .

إذن فليس صحيحاً أن المرأة العربية كانت فى حضيض الذل تعامل معاملة الإماء والعبيد وتسام الخسف . بل إنها شاركت الرجل مشاركة فعالة فى جميع شئون الحياة ، واشتركت معه اشتراكاً بيّن القسمات فى جميع صفاته الخلقية الممتازة وفروسيته . فكانت نداً للفارس العربى فى المروءة والشجاعة والشهامة والعزة والنجدة ، وفى جميع القوى النفسية بأجلى معانيها .

فهى تموت ولا تذل ، شجاعة لا تتراجع ، تقول رأيها صراحة ولا تخشى